

صداقة العربية بين اليميني والتنوخي

أ. إبراهيم الزبيق (*)

قليلة هي الصداقات بين العلماء في تاريخنا، لغلبة المنافسة والغيرة فيما بينهم، ولا سيّما إذا كانوا أصحاب فنٍّ واحد. فالمعاصرة غالباً ما تفضي إلى المنافرة، وكتبُ التراجم مسجورة بأخبار هذه العداوات، ومن أشهرها خصومة المحدثين: مالك بن أنس؛ إمام دار الهجرة، مع علامة المغازي والسّير محمد بن إسحاق، ومن ثمّ وُضعت هذه القاعدة الذهبية في الجرح والتعديل، وهي: لا يُسمع كلامُ الأقران بعضهم في بعض إلا إذا شُفع بحُجّة وبُرهان، لأنه غالباً ما يصدر عن تعصّبٍ وتحاسُدٍ وشنآن^(١).

فعبجّب من العَجَب، والأمر كذلك، أن ترى صداقة علمية تأبّت على هذه المنافسة، وغالبتِ السنين، مستمرّة في صفائها وألّقها، كالذي كان بين العلامتين: الهندي عبد العزيز اليميني الرّاجكوتي، والشّامي عزّ الدّين علم الدّين التنوخي. وقد أُلّف بين قلوبهما حبُّ العربية، والرّغبة الصّادقة في خدمة تراثها، ونشره بما يليق بأصالتها وجمالها.

وأوّل لقاء بين هذين العَلَمين كان في دمشق سنة ١٩٣٦م / ١٣٥٥هـ حين

(*) باحث في التراث من سورية.

(١) ينظر سير أعلام النبلاء: ٧/٣٨-٤١، ٤١/١١، ٤٥١.

قَدِمَ إليها الميمني في رحلته العلمية بعد زيارته لإستانبول ومن قبلها لمصر، وأطلع على ما في مكتبتهما من كنوز المخطوطات العربية^(٢). فيزور المجمع العلمي العربي، وكان عضواً مراسلاً فيه^(٣). ويلتقيه التنوخي، وهو من الرّعييل الأول من أعضائه^(٤). كان الميمني إذ ذاك في نحو الثامنة والأربعين من عمره، والتنوخي يصغره بعامٍ واحد. فيتعارفان كِفاحاً، وكانا من قبل قد تعارفا بالرّأي والخبر. ويصحبه التنوخي لزيارة الشّاعر العراقي المقيم بدمشق وقتئذٍ أحمد الصّافي النّجفي، وقد علما أن في خزائنه نسخة خطية من كتاب «الورقة» لمحمد بن داود الجّراح، المقتول سنة ٢٩٦هـ / ٨٨٢م، وكان لُنْدْرته في حُكْم المفقود، فيطلعان عليها، فإذا هي بخطّ جميل على ورق صقيل، وتشتمل على ترجمة خمسة وستين شاعراً^(٥).

(٢) مجلة المجمع: مج ٥٤ / ٢٥٩ - ٢٦٣.

(٣) مجلة المجمع: مج ٥٤ / ٢٥٤.

وأهدى الميمني في أواخر حياته لمكتبة المجمع بدمشق نسخة مصورة من دفتر فيه أسماء نوادير المخطوطات التي اطلع عليها في رحلته هذه، متقبلاً عنها جُلّ المكتبات العمومية والخاصة في القاهرة والإسكندرية وإستانبول وحلب ودمشق والقدس وبغداد والنجف. وعدّها الميمني خير ذخيرة اقتناها في حياته. وهي في مكتبة المجمع برقم (٤٦٩). وقد نشر الدكتور شاكر الفحام قسماً منه يتعلق بمكتبات إستانبول في «مجلة معهد المخطوطات العربية» (الكويت) المجلد ٢٩ / الجزء الأول سنة ١٩٨٥م: ص ٦٧-١٢٥. وأعيد نشره في كتاب «بحوث وتحقيقات» ج ١ / ١٥١ - ١٩٣. وما زال عشاق التراث ينتظرون نشر القسم الباقي.

(٤) ينظر كتابي «العلامة المجمعى عز الدين التنوخي»: ص ٤٦ - ٤٧.

(٥) مجلة المجمع: مج ١٥ / ٣٣٧.

ثم يُعرّف التنوخي بالكتاب في مجلة المجمع: مج: ١٥ / ٣٣٥ - ٣٣٩. وهذه النسخة أهداها من بعد الشاعر النجفي للدكتور عبد الوهاب عزام، فحقق نصوصها، وشاركه في التعليق عليها الأستاذ عبد الستار أحمد فرّاج، وصدرت طبعتها الأولى عن دار المعارف بمصر سنة ١٩٥٣م / ١٣٧٢هـ، ينظر كتاب «الورقة»: ص ٥، ٧، ١٣، ١٥، ١٧.

ثم يزوران معاً المكتبة الظاهرية - ولا يفصلها عن مقرّ المجمع في المدرسة العادلية الكبرى إلا شارعٌ ضيقٌ - فيطلع الميمني على ما ذُخِرَت به من مخطوطاتٍ نفيسة، ويقف على نسخة نادرة من السُّفَر الثاني من كتاب غريب حديث رسول الله ﷺ تأليف القاسم بن ثابت. فيكتب الميمني على الورقة الأولى فيه: «هذا الكتاب يُعرف بالدلائل، لقاسم بن ثابت، كتبه عبد العزيز الميمني بخطه سنة ١٩٣٦ م^(٦). ولنفاسته يحثُّ صديقه التنوخي على تحقيقه ونشره^(٧).

ويصحبه التنوخي إلى بيتِ صديقه الطَّبيب الشيخ محمد أبي اليُسْر عابدين، في حيِّ سوق ساروجة. والشيخ أبو اليُسْر من أسرة دمشقية عريقة بالعلم والفضل، نبغ فيها مؤلفون ومُفْتُونَ، كأبي حنيفة الأصغر الشيخ محمد أمين عابدين، الشهير بحاشيته «رد المحتار على الدرِّ المختار»، المعروفة بحاشية ابن عابدين، وهي المرجع في المذهب الحنفي، وابنه محمد علاء الدين، مؤلف «قرة عيون الأخيار» التي أكمل بها حاشية والده. ومنهم محمد أبو الخير عابدين، مفتي الشام؛ والد الشيخ أبي اليُسْر، وإليه آلت كتب آبائه، وفيها مخطوطاتٌ نادرة.

فيطلعهما الشيخ أبو اليسر على تلك النوادر، ومن بينها مجموعة لغوية، كُتِبَ على صفحة الطُّرَّة منها: «كتاب المُثَنَّى» لحجَّة العرب أبي الطَّيب عبد الواحد ابن علي اللغوي الحلبي، الشهيد في كائنة الرُّوم بحلب سنة ٣٥١هـ / ٩٦٢م^(٨). فيحرص الميمني على اشترائه، ويسأل عن ثمنه، فيجيبه الشيخ أبو اليسر

(٦) مجلة المجمع: مج ٥٤ / ٢٦٣ - ٢٦٤.

(٧) مجلة المجمع: مج ٣٧ / ٣٦٥.

(٨) ينظر عن تفاصيل هذه المعركة كتابُ «الكامل» لابن الأثير: ٨ / ٥٤٠ - ٥٤٢.

متمنّعا: وزنه ذهباً! ويتوق التنوخي إلى نسخه للاستفادة منه، فيجيبه الشيخ إلى طلبته لما كان بينهما من المحبة والمودة الموروثة من الآباء، على أن ينسخه في منزله. فينسخه التنوخي مع حواشيه، ولم يدر يوماً أنه وقع على أثر لغوي نفيس^(٩)، سيكتشفه بعد سنين.

وكذلك يحثُّ الميمني صديقه التنوخي على تحقيق كتاب «المثنى» ونشره^(١٠).

ولئن فات الميمني اقتناء هذه المجموعة اللغوية النادرة، إن دمشق لم ترضَ عليه بأخرى، فبينا هو على وشك الرحيل عنها، جاءه الشيخ حمدي السفرجلاني؛ وهو من علمائها، المهتمين بالمخطوطات وتجارتها، وبيده دشت^(١١) مبعر كان اشتراه بحلب بثمانٍ باهظ، فسأل الميمني عن اسمه ورسمه ومؤلفه، ومن نظرة واحدة فطن الميمني لما يحويه، فشرط عليه أن يصوره أولاً، ثم يدلّه عليه. وبعد لأيٍ وافق الشيخ حمدي، وإذا هو الجزء الثالث من كتاب «شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف» لأبي أحمد الحسن بن عبد الله ابن سعيد العسكري، المتوفى سنة ٣٨٢هـ / ٩٩٢م. وكان جزؤه الأول قد طبع منذ زمن طبعة رديئة، ونسخته الأم بمصر في جزأين في دار الكتب المصرية. وكان الميمني يتشوق إلى نسخته الكاملة، فإذا هو الآن يظفر بهذا الجزء الثالث، الذي انفرد عن صاحبه. وبلغ سرور الميمني أقصاه بهذا الفوز العظيم، فبه يتم تمام الكتاب عنده، ويتمثل بقول القائل:

(٩) كتاب الإبدال: ج ١ / ٥٧ - ٥٨، وكتاب المثنى: ٤.

(١٠) مجلة المجمع: مج ٣٥ / ٦٧٩.

(١١) الدشت: كلمة دخيلة تعني الورق غير المرتب. ينظر «المعجم الوسيط»: (الدشت).

أَخْيَيْنِ كُنَّا فَرَّقَ الدَّهْرُ بَيْنَنَا إِلَى أَمَدٍ وَالْمَرْءُ لَا يَأْمَنُ الدَّهْرَ^(١٢)
وياشفاق العالم على تراث أمته يهدي صورة منه إلى دار الكتب
المصرية، ليسكن مع أخويه بعد طول فراق^(١٣).

ويعود الميمني إلى الهند، وتبقى محبته في قلب التنوخي، محدثاً طلابه
عنه، لهجاً بما أوتي من المقدره في العلم، والبسطة في تحقيق التراث،
محبباً إياه لهم بكلماته الحلوة، وإعجابه الذي لا ينقضي، مثنياً على كتابه
الفذ «أبو العلاء وما إليه»، وتحقيقاته الغالية في «سمط اللآلي» حتى
أصبحوا وكأنهم يعرفون الميمني من قرب. وكان من هؤلاء الطلاب شاكر
الفحام؛ العالم الجليل، ورئيس مجمع اللغة العربية فيما بعد^(١٤).

* * *

ويستجيب التنوخي لرجاء صديقه الميمني، فيطلع على فهارس المكتبات في
العالم، لعله يعثر على نسخة ثانية من «كتاب المثنى»، تسهّل له معارضته
وتصحيحه، فلم يجد له فيها ذكراً، فينشر في مجلة المجمع خبر عثوره على نسخة
منه^(١٥)، لعل أحداً يبشّره بوجود نسخة ثانية له، وتمرُّ الأيام، وما منَّ منَّ مجيب.

(١٢) بحوث وتحقيقات: ج ١ / ١٣٨ - ١٣٩، وفيه: «أخين كنا»، وهو خطأ مطبعي، والبيت
على المشهور:

أخيين كنا فرق الدهر بيننا إلى الأمد الأقصى ومن يأمن الدهرا
ونسبه ياقوت إلى إمام النحاة سيويه أبي بشر عمرو بن عثمان، وأورده في
ترجمته، ينظر «معجم الأدباء»: ٢١٢٦/٥.

(١٣) وعن هذه النسخة التامة حققه عبد العزيز أحمد، ونشرته مكتبة البابي الحلبي في القاهرة
سنة ١٣٨٣هـ / ١٩٦٣م، ثم أعاد تحقيقه الدكتور محمد يوسف؛ تلميذ الميمني المقرب،
وصدر القسم الأول منه في مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، سنة ١٩٨١م،
بمراجعة أحمد راتب النفاخ، وتنظر ص: ٣ - ٥، ٢٤ - ٢٦ من المقدمة.

(١٤) مجلة المجمع: مج ٥٤ / ٢٦٧.

(١٥) مجلة المجمع: مج ١٥ / ٤١٢.

ومع عناء التدريس لم يستطع التنوخي التفرغ لتحقيقه، فیرقد في مكتبته سنين حتى عام ١٩٥٣م / ١٣٧٢هـ حين ينعم براحة البال، ببلوغه سنّ التقاعد، فيلح عليه المجمع بالشروع في تحقيقه، بعد أن قرر نشره ضمن مطبوعاته، فيلبي التنوخي الرّجاء، وهو أميئته، ويشرع في إعادة نسخه، تمهيداً لتحقيقه، وتيسيراً لطبعه. وما إن يتمّ نسخ أربع وعشرين صفحة منه حتى يجد بعدها أوراقاً بيضاً، والكلام بعدها في الإبدال، وهو يختلف عما في المثني، ويكتشف - ويا لجمال ما يكتشف - أن ما بين يديه في هذه المجموعة مع «كتاب المثني» كتابين آخرين لأبي الطيّب، هما «كتاب الإبدال»، وقد بُتر من أوله وآخره، وفيه خرمٌ في وسطه^(١٦)، و«كتاب الإتياع»، وفيه خرمٌ في أوله ذهب بأول خطبته^(١٧)، وكان يُظن أن تلك الكتب ضاعت فيما ضاع من مؤلفاته^(١٨).

وكان اليميني طوال تلك السنين يتتبع أخبار صديقه التنوخي، وما آل إليه أمر اكتشافه هذه المجموعة النادرة من مؤلفات أبي الطيّب، فيحثه على نشرها، قائلاً له: «ليس لنشر هذه المجموعة وتحقيقها أحدٌ غيرك ممن توفرت له شرائط النشر العلمي»^(١٩).

* * *

وتمضي الأيام باليميني والتنوخي، ولم يقدر لهما اللقاء مرة ثانية إلا بعد عشرين سنة، وذلك سنة ١٩٥٦م / ١٣٧٦هـ، حين قدم اليميني دمشق زائراً لها، ويومها أنشد للتنوخي:

(١٦) مجلة المجمع: مج ٣٢/٤٤٥-٤٥٢، وكتاب الإبدال: ج ١/٥٧-٦٠، ٦٤، ٦٥.

(١٧) كتاب الإتياع: ١١-١٢.

(١٨) كتاب الإبدال: ج ١/٣.

(١٩) مجلة المجمع: مج ٣٥/٦٧٩.

هنا قبل عشرين كنا التقينا فهل نلتقي بعد عشرين عاماً^(٢٠) وقدّر للصديقين أن يلتقيا مرة ثالثة بعد سنتين، في زيارة الميمني لدمشق في حزيران سنة ١٩٥٨ م / ١٣٧٧ هـ^(٢١). وكان قلب الميمني يخفق بحبّ دمشق وأهلها، وبادلتها دمشق ومجمّعها المودة والوفاء^(٢٢). ففي غوطتها الغناء كانا يتنزهان، وعلى ضفاف برداها كانا يجلسان، وأمام ناظريهما الرّبوة التي هام الميمني بحبها، فكان لا يذكرها إلا بصفتها التي وصفها الله تعالى بها: ﴿رَبْوَةٌ ذَاتُ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ [المؤمنون: ٥٠]. ويتجادبان أطراف الحديث عن الشعر والأدب والمخطوطات، ويتفكّهان بروح أخوية صافية. وكان الميمني، وهو يستمتع بهذا المنظر الجميل، يترنّم بيت حميدة^(٢٣)، مع تغييرٍ يسير في ألفاظه ليلائم معناه:

شيوخُ دمشقَ وشُبَّانُها أحبُّ إليَّ من الغاليه^(٢٤)

وكان التنوخي كعادته يرتجل الشُّعر في أحاديثه، فارتجل للميمني في إحدى هذه الجلسات:

(٢٠) ينظر كتابي «العلامة المجمعى عز الدين التنوخي»: ١٠١.

(٢١) مجلة المجمع: مج ٣٤ / ١٩٢.

(٢٢) مجلة المجمع: مج ٥٤ / ٢٥٧.

(٢٣) هي الشاعرة حميدة بنت الصحابي النعمان بن بشير الأنصاري، والبيت هو:

كهول دمشق وشبانها أحب إلي من الجاليه

والجالية هم أهل الحجاز، كان أهل الشام يسمونهم بذلك، لأنهم كانوا يجلبون عن

بلادهم إلى الشام. ينظر «كتاب الأغاني»: ٩ / ١٦٨، ١٦٩، و«معجم الأدباء»: ٣ / ١٢٢٧.

ولأستاذنا أحمد راتب النفاخ مقالة نفيسة في تحرير اسمها، وأنه حميدة، في

سلسلته الماتعة «نظرات في نظرات»، نشرها في مجلة المجمع: مج ٥٩ / ٥٨٧-٦١٨،

وفيها إلماع إلى أصول من أصول النظر في الروايات والنصوص ونقدها.

(٢٤) مجلة المجمع: مج ٥٤ / ٢٧٧-٢٧٨.

الله يعلم يا عبد العزيز بما لُكُم بقلبي من وُدِّ وإجلالٍ
أحسُّ بالفضلِ في غيري فأعْرِفُهُ ما يُنكر الفضلَ إلا كلُّ خَتَّالٍ
إنَّ السَّنابل حين الحَبِّ يملؤها تَخني الرُّؤوسَ ويعلو الفارغُ الخالي^(٢٥)
وفي تلك الزيارة، وهما في رحاب المجمع، يرغب إليه التنوخي أن
يحدثه ببعض ما عثر عليه من نوادر مكتبات المغرب، فيصف له الميمني ما
وجده من تلك النوادر في مكتبة الرباط العامة، ومكتبة جامع القرويين
بفاس، وفي مكاتب تونس. وبشغف يكتبها التنوخي عنه، وينشرها إتماماً
للفائدة في مجلة المجمع^(٢٦).

* * *

وفي جلسة كان ثالثهما الأستاذ سعيد الأفغاني في متنزه المهاجرين،
يستروحون إلى نسيمه العليل هرباً من حرِّ حَزيران، ويتجادبون أطراف الحديث،
التي هي ألدُّ من السَّلوى لدى كلِّ عارف، على حدِّ تعبير الميمني، سأل الميمني
سعيداً عما سقط عليه من نفائس الكتب في رحلته إلى الغرب سنة
١٩٥٦م / ١٣٧٥هـ، فأخبره الأفغاني بأنه عثر في المكتبة الوطنية بباريس على
كتاب «توجيه إعراب أبيات مُلغزة الإعراب» للُرْماني، ولم يزد فيه شيئاً^(٢٧).
وكان الأستاذ الأفغاني قد فرغ من تحقيقه على هذه النسخة الباريسية،
وهو على وشك الصدور، بعد أن تولت الجامعة السورية طبعه في مطبعتها.
فلما عاد الميمني إلى كراتشي، حيث كان يقيم بعد إحالته على التقاعد
من جامعة عليكره بالهند^(٢٨)، وصلت إليه نسخة مطبوعة من الكتاب في ٢٣

(٢٥) مجلة المجمع: مج ٤٤ / ٢٣٣.

(٢٦) مجلة المجمع: مج ٣٣ / ٦٨٣ - ٦٨٦.

(٢٧) مجلة المجمع: مج ٣٤ / ١٩٢.

(٢٨) مجلة المجمع: مج ٥٤ / ٢٦٩.

أيلول، بعث بها إليه الأستاذ الشاعر خير الدين الزركلي، وما إن بدأ يطالع فيه حتى خالجه الشكوك، وساورته الريب بصحة نسبته لعلي بن عيسى الرُماني، المتوفى سنة ٣٨٤هـ / ٩٩٤م، ولما تغلغل في أعماقه اكتشف أن الكتاب للحسن بن أسد الفارقي، المقتول سنة ٤٨٧هـ / ١٠٩٤م، وأن عنوانه على الصواب هو «الإفصاح عن أبيات مشكلة الإفصاح»، وتوجد منه عدّة نسخ أقدم من النسخة الباريسية، كان سجّلها في جزازاته التي علّقها في رحلته سنة ١٩٣٦م / ١٣٥٥هـ، ولم يطلع الأفغاني على هذه النسخ الجليّة، مما أفسد عليه عمله، وحرمه المعارضة بها، وكانت منه على طرف الثّمّام، قريبة المتناول. وسارع الميمني إلى كتابة مقالة، دلّل فيها على صحة ما اكتشفه، وعلق على بعض ما ندّد عن محققه من أوهام، وأرخها في ٢٦ أيلول، وبعث بها إلى المجمع، فنشرت في مجلته في ١ كانون الثاني ١٩٥٩م / ١٣٧٨هـ، أي بعد نحو ثلاثة أشهر من إرسالها^(٢٩).

وفي الوقت نفسه أبدى غير واحد من الفضلاء، الذين أهدى إليهم الأفغاني الكتاب، الشكّ في نسبته للرُماني، فأدّاه ذلك إلى إعادة البحث، ليكتشف خطأه، ويبادر إلى إصلاحه، بأن استدرك في نسخ الكتاب، التي لم توزع بعد، أوراقاً شرح فيها ملابسات هذا الخطأ، واستدراكه الصواب، ونشرها في ٢٤ تشرين الأول ١٩٥٨م / ١٣٧٨هـ^(٣٠).

(٢٩) مجلة المجمع: مج ٣٤ / ١٩٢-١٩٥.

(٣٠) ثم أعاد الأفغاني نشر الكتاب على الصواب في طبعته الثانية، التي صدرت عن جامعة بنغازي سنة ١٩٧٤م / ١٣٩٤هـ - وكان يدرّس فيها وقتئذٍ - فقال في مقدمته، ص ٣: «وقبيل توزيع نسخ الكتاب علمت أن نسخة باريس التي عنها صدرت الطبعة مخطئة في اسم الكتاب واسم مؤلفه، ساقطة منها خاتمة الكتاب.. فبادرت إلى إيداع كل نسخة نشرة تصحح الخطأ وترد الخاتمة».

وفي العام التالي سنة ١٩٥٩ م / ١٣٧٩ هـ تبلغ التنوخي وفاة والد الميمني الحاج عبد الكريم بن يعقوب، في بلدة راجكوت بالهند، فيكتب إليه معزياً:

كما عزوت إنني أعزّي عبد العزيز بالأب الأعزّ
من جاوز التسعين عاماً في الهدى عليه رحمة الإله أبدا
ورثت منه عمره العالي الأتم «ومن يشابه أبه فما ظلم»^(٣١)

* * *

وتتفق الزيارة الرابعة للميمني لدمشق في تموز سنة ١٩٦٠ م / ١٣٧٩ هـ^(٣٢)، وهي زيارته الأخيرة لها^(٣٣)، مع صدور الجزء الأول من «كتاب الإبدال»، فيقرأ بشغف ما خطته أنامل صديقه التنوخي في مقدمته وتعليقاته، هذا الصديق المفتون باللغة وفنونها وشواردها كما وصفه، فيمسك بقلمه، ويكتب لمجلة المجمع مقالة ضافية عنه، مُقرِّطاً فيها عمل صديقه فيه، ومما قاله: «كتاب الإبدال

= وكان الأستاذ الدكتور مازن المبارك معاضداً لأستاذه الأفغاني في الاهتمام إلى الصواب، فقد ذكر أنه كان وقتئذٍ بالقاهرة، يحضر رسالة الدكتوراه عن الرماني النحوي، فلما اطلع على الكتاب منسوباً إليه، رأى أنه ليس للرماني، لما يعرفه من أسلوبه، ومن استقصائه لآثاره، وليس بينها «توجيه إعراب الأبيات الملغزة»، فبادر إلى كتابة رسالة إلى أستاذه الأفغاني بذلك، فكلفه مراجعة الفهارس والكتب المماثلة لموضوع الكتاب، فوقف المبارك على نسخة خطية من كتاب الفارقي، ووضع الحقيقة بين يديه. ولما بدا للأفغاني وجه الحق بادر إلى الأخذ به وإعلانه على الناس، ولما عاتبه المبارك لنشره اسمه، قال له الأفغاني: يجب أن يُعرف الحق وأن يُنسب الفضل إلى أصحابه. وعقب المبارك على ذلك بقوله: فكان معلم أخلاق وسلوك، كما كان معلم نحو ولغة. ينظر كتابه «سعيد الأفغاني»: ١٩، ٢٢، ٩٠-٩١.

(٣١) بحوث وتحقيقات: ج ١/ ١٧، وقد سقطت منه كلمة «أبه» في البيت الثالث.

(٣٢) مجلة المجمع: مج ٣٧/ ٥١٧.

(٣٣) مجلة المجمع: مج ٥٤/ ٢٧٢.

من خير ما نُشر في هذه العصور المتأخرة التي قَلَّت فيها الرَّغبة الصَّادقة في دَرَس اللغة، والبحث عن فرائدها وشواردها؛ ذلك أنه ليس لها مغنم مادية من ورائها. ولكم بحث الأستاذ التنوخي في الكتاب عن شواهد الإبدال التي بلغت نحو ستمئة شاهد من كلام العرب، ولا يوجد كثيرٌ منها في المصادر المعروفة، وتمكّن بعد صدق البحث والتنقيب من عزوها إلى قائلها، واهتمّ بتفسير غوامض التعبير، واستدرك من حروف الإبدال كثيراً من الفوائت التي عثر عليها في أمهات كتب اللغة مما زادت به فائدة الكتاب. ثم نُشر بأمانةٍ جميع حواشيه وطُره اللغوية المروية عن أئمة اللغة، أو المنقولة عن كتبهم بخطوطهم، وقد ضاع أكثرها. أجل، ما كان ليطلعنا على كلِّ ذلك إلا من ذاق لذّة العلم، وألف الصَّبر على مشاقه، لذلك أهنيّ العزَّ التنوخي على عمله هذا المبرور، وعلى ما كابدته في تحرير كتابه وتصحيحه.. والنشر العلمي كما بيناه لا يضطلع به إلا من رزقه الله فهماً في اللغة دقيقاً، وطبعاً عربياً صحيحاً، وكان له عناية فائقة بتمحيص المسائل، وتحقيقِ نصوصها، ثم أُوتِي صبراً كصبر أيوب مما اجتمع للعز التنوخي، ولذلك كلّه جاء كتابُ الإبدال على ما رأيتُ، بريئاً من التصحيف، سليماً من التحريف، ما خلا هنات تعدُّ من طَبَع الطبع، وهو مما يشهد للمحقق باضطلاعِه وسَعَة اطلاعه على أسرار العربية، ولا يجتمع ذلك إلا لقليل من علماء اللغة المحققين، وفي مقدمتهم العز التنوخي، فالحمد لله على ذلك. وأنا مع هذه الكلمة المنصفة الصادقة أحثه على متابعة جهوده لنشر الجزء الثاني من الإبدال، وما بقي من آثار أبي الطَّيِّب اللغوي الحلبي، وحقيقُ به ذلك، لأن أبا قيس التنوخي شاميُّ كأبي الطيب، فجزاه الله على تحقيقه هذا خيراً، وأبقاه للعلم والأدب، وخدمة لغة العرب»^(٣٤).

وهنيئاً للتوخي على هذه الشهادة من عالم جليل، أحب العربية حباً ملك عليه نفسه، وتغلغل في سُويداء قلبه.

وكان اليميني في تلك الزيارة، قد جاء إلى دمشق بدعوة من وزارة الثقافة^(٣٥)، لتستأنس برأيه، وتفيد من خبرته في معرفة المخطوطات العربية، وأي المخطوطات أولى بالنشر^(٣٦). فكتب اليميني لمديرية إحياء التراث القديم فيها قائمة بأسماء ما في خزائن إستانبول من المخطوطات النفيسة، ومنها نسخة فريدة من كتاب «مقدمة في النحو»، لخلف بن حيان الأحمر البصري، المتوفى سنة ١٨٠ هـ/ ٧٩٦ م، وهو من أقدم ما أُلّف من مختصرات النحو. ورغب اليميني أن يعهد بتحقيقها إلى صديقه التوخي. وكذلك كان^(٣٧).

وفي مجلس ضمّ لمة من أصدقائه الكرام، فيهم إضافة للتوخي أستاذنا أحمد راتب النفاخ، حفز اليميني الهمم لطبع كتاب «العُباب الزّاهر واللُّباب الفاخر» للصابغاني، المتوفى سنة ٦٥٠ هـ/ ١٢٥٢ م^(٣٨)، وكان قد فرغ لتوه، وهو في دمشق، من تحقيق مقدمته^(٣٩)، ونشرها في مجلة المجمع^(٤٠). ثم أردفها بمقالة نبّه فيها على أهميته، وطريقة نشره المُثلى، وكذلك نشرها في مجلة المجمع^(٤١)، ومما قاله فيها: «من أجلّ أعمال مجمع اللغة العربية بدمشق، وقد خلُق لحياء لسان العرب، أن يؤلّف لجنة لغوية تتألّف من

(٣٥) مجلة المجمع: مج ٣٢/ ٦٨٣، ومج ٣٥/ ٥١٥، ومج ٣٧/ ٥١٧.

(٣٦) مجلة المجمع: مج ٥٤/ ٢٧٢.

(٣٧) مقدمة في النحو: ٣- ٩، وكتابي «العلامة المجمعى عز الدين التوخي»: ١٠٧- ١١٠.

(٣٨) مجلة المجمع: مج ٣٧/ ٥١٧.

(٣٩) مجلة المجمع: مج ٣٥/ ٥٦٦.

(٤٠) مجلة المجمع: مج ٣٥/ ٥٤٦- ٥٦٦.

(٤١) مجلة المجمع: مج ٣٦/ ٤٧- ٤٩.

حُدِّقَ اللُّغَةُ وَعُشِّقَها لِتَقُومَ بِنَشْرِ هَذَا السُّفْرِ الْجَلِيلِ»^(٤٢).

وكان أستاذنا النفاخ قد قرأ عليه في زيارته هذه: باب كيف كان بدءُ الوحي إلى رسول الله ﷺ من «الجامع الصحيح» للبخاري، وطلب منه الإجازة. فأجازته الميمني بمرويياته عن شيوخه^(٤٣). وكان النفاخ ينقل عنه قوله: «المعنى الذي يمكن أن أؤدِّيه بلفظين لا أجعلهما ثلاثة»^(٤٤). للتدليل على شدة حرصه على الإيجاز في كتاباته وتعليقاته.

* * *

وطوال تلك السنين لم تغب عن التنوخي رغبة صديقه الميمني في تحقيق السُّفْرِ الثاني من كتاب «الدلائل في غريب الحديث» لقاسم بن ثابت السَّرْقُسْطِي، المتوفى سنة ٣٠٢هـ / ٩١٥م.

فعرَّف به في مجلة المجمع في مقالته «من ذخائر قبة الملك الظاهر»^(٤٥). ثم عاد التنوخي للحديث عنه في مقالة ضافية نشرها في مجلة المجمع في مطلع عام ١٩٦٦م / ١٣٨٥هـ^(٤٦). وكان قد حفَّزه إلى الكتابة عنه مرة أخرى عثوره على نسخة خطية ثانية للسُّفْرِ الثاني منه في الخزانة العامة في الرباط، وكان سروره بها عظيماً. أما سفره الأول، فقد أخبره الميمني ألا وجود له في خزائن الأرض، ولا يعلم مستقره إلا الله. ومع ذلك كان التنوخي يأمل في العثور على نسخة ثالثة لعلها تكون النسخة الكاملة له، قائلاً: «الإبطاء مع

(٤٢) مجلة المجمع: مج ٣٦ / ٤٩.

وقد طبعت أجزاء من «العباب» في بغداد، جلها بتحقيق الشيخ محمد حسن آل ياسين.

(٤٣) تنظر إجازة الميمني له في مجلة المجمع: مج ٥٤ / ٢٤٠.

(٤٤) مجلة معهد المخطوطات العربية (الكويت): مج ٢٩، ج ١ / ٦٨، وبحوث وتحقيقات: ج ١ / ١٥٢.

(٤٥) مجلة المجمع: مج ٣٧ / ٣٦٢-٣٦٦.

(٤٦) مجلة المجمع: مج ٤١ / ٣-٢٠.

التمام خيرٌ من العجلة مع النقصان». وكان اليميني على خلاف رأيه في الانتظار، فما فتى يحثه على نشره، ومن أحقُّ بنشره من المجمع العلمي، حتى استجاب له التنوخي أخيراً، وشرع في تحقيقه^(٤٧)، وقطع شوطاً بعيداً فيه، وأطلع أستاذنا النفاخ على كراريس من عمله، ولكن المنيّة لم تُمهّل التنوخي حتى يحقق أمنيته في إتمامه، فتوفي فجر يوم الجمعة ٢٤ حزيران ١٩٦٦م / ٥ ربيع الأول ١٣٨٦، عن سبع وسبعين سنة، وفُقد ما صنع، ولم يقع إلى أحدٍ علمٌ ما قام به في هذا الباب^(٤٨).

ويُفجع اليميني بوفاة صديقه الوفيّ الحفيّ كما وصفه، فيتوجع لهذا النبأ المحزن، وقد شطّت به الدار، ويعود بذاكرته إلى تلك الأيام الجميلة التي دعا الله فيها أن يجمع بينه وبين التنوخي، فاستجاب دعوته، وحقق رغبته، والتقاء بعد عشرين عاماً. أما الآن، وقد غلبه الألم، فيتساءل بأسى: «كيف أسأله تعالى أن يجمع بيننا بعد عشرين عاماً أخرى»^(٤٩)؟ ويخطُّ بقلمه كلمات رثاء، لعلها تسليه عن مُصابه، فيقول: «لقد كان مُغرماً بالأداب والمعارف، سَمحاً كريماً في تقديره لجهود المعنيين بها، إذن ليس ببدع أن تعشق الأذن قبل العين من كلا الطرفين، حتى إذا التقينا راعني مخبره ومنظره، واستهوتني شمائله، وسأذكر دائماً تلك المجالس التي كان المرحوم يهتم بعقدتها على ضفاف بردى، وفي وسط داريا أثناء زياراتي

(٤٧) مجلة المجمع: مج ٤١/١٧-١٨.

(٤٨) مجلة المجمع: مج ٥١/٢٦٤، وكتابي «العلامة المجمعى عز الدين التنوخي»: ١١٧-١١٨، ١٢٠.

وقد وصف الدكتور شاعر الفحام ما وصل إلينا من نسخه، في بحث نفيس، نشره

في مجلة المجمع: مج ٥١/٢٣٢-٢٩٤، ٤٨١-٥١٧.

(٤٩) رسالة اليميني بخطه محفوظة مع أوراق التنوخي لدى المجمع.

لبلاد الشام، والتي كنا نتجاذب فيها الأحاديث عن الشعر والأدب، ونتفكّه بروح أخوية صافية»^(٥٠).

ويشتدُّ حينُ قلبه القَرَحُ إلى لقاءه، فيكتبُ مواسياً لنفسه: «ولا جَرَمَ أنَّ الله يجمع بيننا في دار القَرَارِ مع الأتقياء الأبرار، إنه قريبٌ مجيب»^(٥١).

ويلحق الميمني بصديقه التنوخي بعد اثني عشر عاماً، حيث أسلم الرُّوح إلى بارئها صباح يوم الجمعة ٢٧ تشرين الأول سنة ١٩٧٨م / ٢٦ ذي القعدة ١٣٩٨هـ، عن نحو تسعين سنة^(٥٢)، فهل استأنفا في عالم الغيب ما كان بينهما في عالم الشُّهود؟

* * *

المصادر والمراجع

- الإفصاح في شرح أبيات مشكلة الإعراب، لأبي نصر الحسن بن أسد الفارقي، حققه وقدم له سعيد الأفغاني، جامعة بنغازي، الطبعة الثانية، ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م.
- بحوث وتحقيقات، تأليف العلامة عز الدين الميمني، أعدها للنشر محمد عُزير شمس، تقديم شاعر الفحام، مراجعة محمد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٥م.

(٥٠) العلامة المجمع عَزَّ الدِّينُ التَّنُوخِيُّ: ١٢٤.

(٥١) رسالة الميمني بخطه محفوظة مع أوراق التنوخي لدى المجمع.

(٥٢) وقد ترجم له ترجمة ضافية الدكتور شاعر الفحام، ونشرها في مجلة المجمع: مج

- سعيد الأفغاني حامل لواء العربية، تأليف الدكتور مازن المبارك، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٢م.
- سير أعلام النبلاء، تأليف شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، تحقيق ثلة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨١م.
- شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف، تأليف أبي أحمد الحسن بن عبد الله بن سعيد العسكري، تحقيق الدكتور محمد يوسف، مراجعة أحمد راتب النفاخ، القسم الأول، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، سنة ١٩٨١م.
- العلامة المجمع عزالدين التنوخي، تأليف إبراهيم الزبيق، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، سنة ١٤٣٦هـ / ٢٠١٥م.
- الكامل في التاريخ، تأليف عز الدين علي بن محمد المعروف بابن الأثير، دار صادر، بيروت، ١٣٨٦هـ / ١٩٦٦م.
- كتاب الإبدال، لأبي الطيب اللغوي، تحقيق عز الدين التنوخي، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، سنة ١٩٦٠م.
- كتاب الإبتاع، لأبي الطيب اللغوي، تحقيق عز الدين التنوخي، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، سنة ١٩٦١م.
- كتاب الأغاني، لأبي الفرج علي بن الحسين الأصفهاني، تحقيق الدكتور إحسان عباس والدكتور إبراهيم السعافين والأستاذ بكر عباس، دار صادر، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٢٩هـ / ٢٠٠٨م.
- كتاب المثنى، لأبي الطيب اللغوي، تحقيق عز الدين التنوخي، مطبوعات مجمع اللغة العربية، سنة ١٩٦٠م.

- معجم الأدباء، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، تأليف ياقوت الحموي الرومي، تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٣ م.
- مقدمة في النحو، تأليف خلف الأحمر، تحقيق عز الدين التنوخي، مطبوعات وزارة الثقافة، مديرية إحياء التراث القديم، دمشق، سنة ١٩٦١ م.
- الورقة، تأليف أبي عبد الله محمد بن داود الجراح، تحقيق الدكتور عبد الوهاب عزام وعبد الستار أحمد فراج، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثالثة، سنة ١٩٨٦ م.
- أوراق التنوخي لدى المجمع.

المجلات:

- مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، المجلدات: ١٥، ٣٢، ٣٣، ٣٤، ٣٥، ٣٦، ٣٧، ٤١، ٤٤، ٥١، ٥٤.
- مجلة معهد المخطوطات العربية (الكويت)، مجلد ٢٩ / جزء ١.

* * *